اشقر الشاربين ، ازرق العينين ، حاد الطباع ، يناقش الامور العسكرية بحماس شديد ، طموح ، يحمل دائما بندقية كلاشنكوف .

٣ ـ الحتاني ، شاب في التاسعة عشرة ، ابيض الوجه وسيمه ، نحيف الجسم ، هادىء الطباع ، ينفذ الاوامر العسكرية دون تردد . وكان يحمل قاذف ب ٧ مع اربع قذائف .

٤ ـ وعضاضة في العشرين من العمر ، اسمر البشرة ، ممتلىء الجسم ، هادىء الطباع ، يقوم دائما بواجباته العسكرية بحماس شديد . يحمل دائما بندقية كلاشنكوف .

★ ★ ★

وكان اليوم السابع من كانون الثاني ١٩٧٦ ، وكان الاحياء الاربعة في احد مباني حرش تابت غرب تل الزعتر .

كانوا اربعة احياء لان رفاقهم الستة كانوا قد استشهدوا في المعركة منذ الصباح .

كان يحيط بهذا المبنى اربع دبابات تابعة لسلطة سليمان فرنجية الفاشية مع حوالي مئة من مغاوير الجيش وعدد من الاحزاب الفاشية (كتائب واحرار) ، وكانوا يحيطون بهذا المبنى من ثلاث جهات : الشمال والغرب والجنوب ... وكانت الدبابات تصب حممها على ذاك المبنى وتدكه دكا ...

وكان الحتاني مصابا بظهره اصابة غير خطرة منذ معركة الصباح الباكر ، وقد اخترقت رصاصة قدم ابو احمد مزيك .

بدأ الفاشيون يتحدثون بمكبرات الصوت الى المجموعة يطلبون منهم التسليم لانهم محاصرون ، ثم اعطوهم مهلة خمس دقائق ليخرجوا من المبنى رافعي الايدي حتى يحافظوا على سلامتهم الشخصية .

نظر الرفاق الى وجوه بعضهم (اذ كان قائد المجموعة قد استشهد منذ الصباح) ثم اتخذوا قرارهم بالصمود حتى الاستشهاد .

بعد انقضاء مهلة الخمس دقائق عادت الدبابات لتصب قذائفها على المبنى ، واخذ الفاشيون باطلاق النيران الغزيرة من رشاشاتهم المتوسطة ممهدين بذلك للهجوم من اجل تطهير المبنى .

بدأ الهجوم ، لكن الرفاق كانوا لهم بالمرصاد فأمطروهم بوابل من رشاشاتهم ، فتراجع المهاجمون الى الوراء بعد ان تكبدوا خسائر فادحة بالارواح ... لكن الدبابات وقاذفوا الـ ب ٧ استمروا بالاطلاق ، فاتخذ الرفاق زوايا المبنى الذي امتلأ بالدخان .

بدأ هجوم آخر باقتحام البناية من ثلاث جهات الا ان الرفاق الذين كانوا بانتظارهم قرب الباب والنوافذ فوتوا عليهم الفرصة مرة اخرى ...

تكرر الهجوم ... وتكرر الصمود والتصدي حتى مغيب الشمس دون ان يستطيع الفاشيون دخول المبنى .

★ ★ ★

اخذ الاعياء من الرفاق كل مأخذ اذ لم يناموا في الليلة السابقة ، ولم يهدأوا طيلة هذا اليوم اذ انهم في صد للهجمات المستمرة ، وقد جرح اثنان منهم منذ الصباح ...

لكن ارادة الصمود وحب البقاء جعل كل ذرة من اجسادهم في يقظة تامة .

★ ★ ★

عند غروب الشمس لجأ الفاشيون لاسلوب جبان ، اذ ارادوا حرقهم احياء فاحضروا قوارير الغاز ثم فتحوها ودحلوها نحو المبنى بعد ان اشعلوها بالنار ... اخذت هذه القوارير تنفجر قرب الجدران باصوات تصم الاذان محدثة فجوات في هذه الجدران فامتلأت الغرفة التي كانوا بها باللهب والدخان ... ثم اصابت شظية من هذه القوارير « ركبة » ابو احمد مزيك فأطارت « الصابونة » فوقع ارضا دون حراك قرب احدى الفجوات وغاب عن الوعي من شدة الالم والنزيف ... رأى وجه ابنه الحبيب احمد ذو السنتين مادا اليه يداه الصغيرتان ... لكنه كان يبتعد عن طفله قليلا قليلا ويتجه نحو تنين هائل وقد فغر فاه ليبتلعه ... افاق ابو احمد من غيبوبته وتحامل على الامه وشد قدمه من فوق الركبة بكوفيته ليقطع نزيف الدم ... ثم اصبحت كل ذرة من جسمه في منتهى اليقظة والوعي .

اخذ اللهب يحرق شعر رؤوسهم ومروش عيونهم وايديهم ... لكن سرعان ما خمد اللهب بعد ان احترق كل الغاز داخل الغرفة ... لكن الغرفة امتلأت بالدخان الذي كاد يخنقهم .

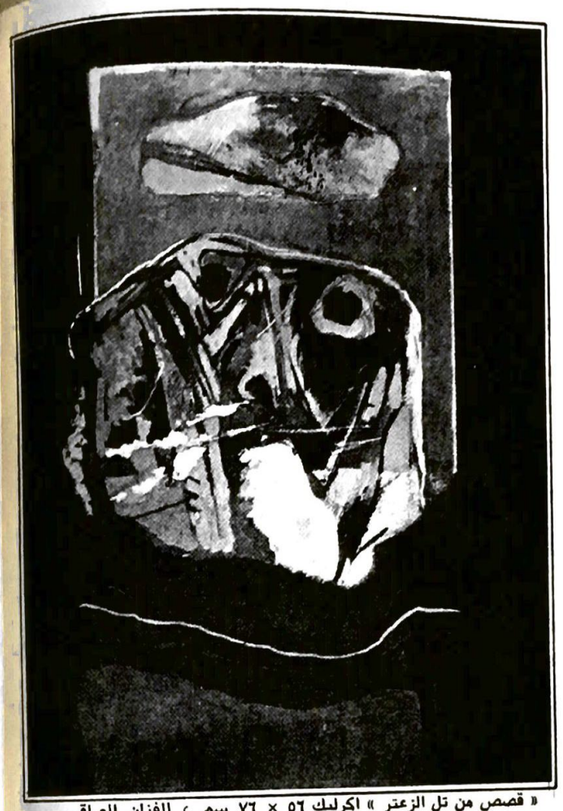

« قصص من تل الزعتر » اكرليك ٥٦ × ٧٦ سم ، للفنان العراقي ضياء العزاوي

اصيب محمد ماجد بالصمم من صوت الانفجارات ... ووقع ابو احمد مزيك ارضا قرب احدى الفجوات كما اسلفنا ... واصيب عضاضة بشظية قارورة في يده .

بعد الحريق بدأ هجوم الفاشيين الكبير على المبنى بعد ان ظنوا انهم ماتوا احتراقا .

لكن ابو احمد مزيك ، على الرغم من اصابته البالغة ، اخذ يحصدهم حصدا من خلال الفجوة وهو منبطح ارضا ...

وكان محمد ماجد يرابط على باب المبنى ولم يستطع ان يسمع اصوات اقدام الفاشيين المقتربة ، لكنه كان يطلق النار معتمدا على الرؤية ، ذلك لانه فقد سمعه نتيجة شدة انفجارات القوارير .

وكان عضاضة ، رغم اصابته في يده ، يرابط على احدى النوافذ وقد احترق شعره ورموش عينيه لكنه كان يحصدهم حصدا ...

اما الحتاني ، فعلى الرغم من اصابته في ظهره فقد رابط على شباك اخر وكان يصلي الفاشيين بقذائف الـ ب ٧ القليلة .

اما الهجوم الوحشي العنيف فقد كان بشكل رئيسي من باب المبنى ...

اما محمد ماجد فلم يسمع اصوات اقدامهم وفوجىء بهم امامه قرب الباب وكان احد الفاشيين قد وصل الباب فعلا ... عندها ضغط محمد ماجد زناد الدكتريوف بكل ما اوتي من قوة فقتل منهم عشرة كان احدهم قد وصل اليه فانكفأ على وجهه عند قدميه وكان رجلا سمينا فاتخذ منه متراسا واخذ يلاحق الفاشيين برصاصه ، فكف الفاشيون عن الهجوم واكتفوا بضرب المبنى بواسطة الرشاشات والمدفعية المباشرة من الجهات الثلاث .

★ ★ ★

الساعة السابعة مساء وقد اشتد الظلام حمل محمد ماجد ابو احمد مزيك ثم اتكأ الحتاني على عضاضة وانسحب الرفاق من الجهة الشرقية نحو المخيم بحذر شديد وقد احضروا كل اسلحتهم مع سلاح الفاشي الذي اتخذه محمد ماجد متراسا والذي هو عبارة عن كلاشنكوف اخمص حديدي وجعبة ملأى بالطلقات وحزام مكتوب عليه « حزب الوطنيين الاحرار ـ النمور » و « حجاب » مكتوب عليه بعض الخزعبلات لتمنع اختراق الرصاص لحامله .

الفحم

في الثاني من ايار ١٩٧٣ وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحا ، كنت في بيتي في تل الزعتر وقد حضر الرفيقان : نواف عباس وصابر مسرعين وهما يلهثان قائلين : الجيش اللبناني يحاصر مخيم شاتيلا وقد بدأ بقصف المخيم قبل قليل .

ـ من قال لكما ؟

ـ لقد ذهبنا الى شاتيلا فرأينا الحصار وكان الجيش يمنع الخارج والداخل الى المخيم .

ـ كيف عرفتما بالمعركة وقصف المخيم ؟

ـ ما كدنا نعود حتى سمعنا انفجارات قذائف الهاونات داخل المخيم واعمدة الدخان تتصاعد الى عنان السماء ، والمعركة بدأت .

اصغنا السمع فسمعنا فعلا اصوات الانفجارات .

طلبت من الرفيقين ان يستنفرا منظمتنا في المخيم وان يلتحق كل رفيق في المحور المخصص لمنظمتنا ، وكان في جنوب وغرب المخيم ، ثم طلبت من رفيق ثالث ان يبلغ بقية المنظمات ما حصل في شاتيلا .

بعد ساعة كانت محاور المخيم تعج بميليشيا المخيم الذين انتشروا تحسبا لاي طارىء دفاعا عن المخيم .

ولكن كيف يستطيع رجال الميليشيا المسلحين ببنادق الكلاشينكوف الدفاع ضد مدافع الهاون التي تقصف عن بعد اربعة كيلومترات واحيانا خمسة ؟

في اليوم التالي حضر الرفيق القائد ابو امل ، وكان يحمل في كتفه بندقية الكلاشن ، الى المخيم ثم اجتمعنا وتداولنا في الامر ... كان رأيه ان نثبت في محاورنا حول المخيم ... نقيم التحصينات ... نبث الالغام ضد الدبابات ... يحضر رجال ميليشيا الذين يحملون قواذف الـ ب ٧ المضادة للدروع حول كل الاماكن التي يحتمل ان تتسرب منها دبابات الفاشيين .

عقد اجتماع طارىء لقيادة المخيم ونوقشت الاراء المختلفة ثم اتفق على خطة دفاعية وليست هجومية .

★ ★ ★

اخذت تتوارد الانباء ان الجيش اللبناني يحاصر مخيم ضبية ويدكه دكا وقد احتل كل مشارف المخيم ومرتفعاته ، وحصلت معركة شديدة غير متكافئة هناك .

ثم حلقت طائرتان حربيتان لبنانيتان من طراز ميراج فوق مخيم تل الزعتر وجسر الباشا وتوجهتا نحو مخيم برج البراجنة واخذتا تدكانه بالصواريخ ، ثم نحو صبرا حيث بدأت باطلاق رشاشاتها من عيار ٨٠٠ .

بعد قليل اخذت قذائف الهاون تتساقط على مخيم تل الزعتر بمعدل ثلاث قذائف بالدقيقة الواحدة .

كانت مصادر هذه القذائف ثكنة الفياضية واحراش بيت مري وجديدة المتن وكلها خارج مرمى نيران رجال ميليشيا المخيم الذين لا يملكون اي مدفع .

شب حريق في « براكيات » البرج العالي المصنوعة من الخشب والتنك .

كنا ، ابو امل وانا ، في المحور نراقب اللهب ، وقد خفنا كثيرا ان يمتد هذا اللهب الى المخيم فيحرقه بشكل كامل ، فتوجهنا نحو الحريق بقصد مساعدة الاهالي باطفائه .

صعدنا ، لكن لم نكد نصل الى نصف الطريق حتى خمد الحريق بعد ان بشكل كامل على خمس « براكيات » .

اما الذي حصل فقد قامت بعض الحرائق في المخيم من ورائنا ، فرجعنا ادراجنا لنساهم في اخماد هذه الحرائق .

كان اللهب يتصاعد من « براكية » عمر شحادة الملاصقة لدكان ابو ابراهيم لم يكن هناك من امل في اطفاء هذه البراكية التي اخذت نيرانها تمتد الى دكان ابو ابراهيم .

دخلنا ، ابو امل وانا ، الى دكان ابو ابراهيم ثم اخذ ابو امل يحاول خلع الشبابيك الخشبية واخذت اصب الماء على هذه الشبابيك الى ان اطفئت تماما بعد ان خمدت النيران في براكية عمر شحادة بعد ان التهمتها تماما ، لكن ام ابراهيم حضرت وهي تبكي خوفا على احتراق الدكان ، فطمأناها ، وتوجه ابو امل الى المحور وتوجهت الى مستوصف الجبهة الشعبية الوحيد الذي كان فيه طبيبان .

لم اكد اصل الى المستوصف حتى رأيت شابا يركض مسرعا الى المستوصف والدماء تغطي وجهه .

ثم احضر بعض الرجال شابا اخر وقد خرجت امعاؤه ، ثم احضر جريح ثالث على اخر رمق من الحياة ، ورابع وخامس الى ان اصبح عدد الجرحى ثمانية عشر جريحا وخمس شهداء .

بعد حضور ام ابراهيم الى الدكان وبكاءها على فقدان محتوياتها دفعت الشهامة الكثير من الشباب فتجمعوا في الدكان واخذوا ينقلون محتوياتها الى مكان اخر ، لكن الجيش الفاشي قصف نفس المكان بالقنابل الفوسفورية التي جرحت وحرقت ثمانية عشر شابا وقتلت خمسة .

وبعدها ذهبنا الى هناك فوجدت كومة من الفحم شبيهة بالفروج المشوي وقد اختفت الاطراف والرأس تماما اما عظام الاطراف فقد ظهر قسم قصير ابيض منها وقد انحسر عنه اللحم المتفحم ، ذلك هو محمد العربي .

اما الحاجة فاطمة التي كانت تسكن في براكية اخرى فلم يكن مصيرها بأفضل من مصير محمد العربي من حيث انها قد تفحمت ، الا ان الرأس بقي وقد احترقت فروة الرأس ولم يبق الا الجمجمة التي كانت ناصعة البياض ، وقد فتحت فاها والتصق اللسان باللثة العليا .

اما الشهداء الاثنا عشر الباقون فلم يكونوا سوى فحما اسود .

الميت

بدأ القصف الوحشي على مخيم ضبية والتلال المحيطة به في حوادث ايار ١٩٧٣ منذ الفجر وذلك بمختلف انواع مدفعية الدبابات والهاونات ورشاشات الـ ٥٠٠ تمهيدا للهجوم الكبير ، وكان ذلك خطة عسكرية مدبرة (اي في نفس اليوم الذي ضربت فيه مخيمات بيروت (تل الزعتر وشاتيلا وبرج البراجنة) .

كان في التلال المحيطة بالمخيم فصيل من رفاقنا يتدربون على مختلف انواع الاسلحة ، الا ان قسم من هذا الفصيل استطاع ان يتسلل الى داخل المخيم ليقاوم مع جماهيره هذا العدوان غير المبرر وغير المفهوم انذاك ، اما القسم الثاني من الفصيل فقد استطاع ان يتسلل الى خارج الطوق في الاحراش ، واما القسم الثالث وعددهم خمسة ، فلم يكن بامكانه التسلل الى المخيم لانهم كانوا مكشوفين على العدو ، ولم يكن باستطاعتهم ايضا التسلل خارج الطوق ، ثم بدأت الدبابات بالزحف الى كل التلال المحيطة بالمخيم وكانت المقاومة عنيفة من داخل المخيم ضد الجيش الفاشي مما حدا به ان يتوقف على مشارف المخيم ويكتفي بدكه بمدفعية الدبابات ورشاشات الـ ٥٠٠ .

اما المجموعة المحاصرة فكانت بقيادة الرفيق عبد الحليم . بدأت المدفعية تدك المنطقة بوحشية بالغة ثم اطبقوا الحصار تماما على هذه المجموعة وطلبوا منهم الاستسلام :

نظر الرفاق في وجوه بعضهم ثم اصدر عبد الحليم اوامره بالتصدي والصمود حتى الاستشهاد ، على الرغم من عدم تكافؤ القوى ، اذ ان الرفاق الخمسة لا يحملون سوى بندقية الكلاشنكوف مقابل مدافع الدبابات الثقيلة والهاونات ورشاشات الـ ٥٠٠ .

جرت معركة عنيفة جدا اسفرت عن أسر احد الرفاق بعد ان نفذت ذخيرته واستشهاد الاربعة الباقين مع قائدهم .

جمع الجنود جثث الشهداء ثم نقلوها في سيارة الى براد مستشفى الكرنتينا في بيروت .

وبعد ثلاثة ايام كتبت صحف بيروت في صدر صفحاتها : « ميت يعود الى الحياة » !

دخل احد ممرضي مستشفى الكرنتينا الى براد الموتى ، فاصيب بالهلع عندما اشار له احد الموتى باصبعه ان اقترب ، لكن الممرض ولى هاربا من الذعر واخبر بلسان متلعثم مسؤولي المستشفى عن ميت البراد ...

كان ذلك هو القائد عبد الحليم الذي عاد مرة اخرى الى الحياة ليمارس النضال بتصميم اكبر وعزيمة اشد .